التكامل بين الأدب والتاريخ

في كتاب «القدس الشريف» بين شعراء الشعوب الإسلامية للدكتور حسين مجيب المصري

بقلم: محمد إبراهيم أبو سنة
مصر

قليلة هي الكتب التي تتكامل فيها عناصر الموضوع كما تتكامل في هذا الكتاب البديع والذي صدر أخيرا بعنوان : « القدس الشريف بين شعراء الشعوب الإسلامية » للأستاذ الدكتور حسين مجيب المصري. والمؤلف من أبرز رواد الدراسات الشرقية في مصر والعالم الإسلامي، وقد زود المكتبة بعدد هائل من الدراسات التاريخية والأدبية في مجال الدراسات الشرقية، بالإضافة إلى عدد من الأعمال الإبداعية المترجمة عن الفارسية والتركية والأردية، كما أنه شاعر تتسم قصائده بومضات من التصوف والوجد الديني ولحظات الإشراق الروحي .

يجيء هذا الكتاب في وقت تمثل فيه مدينة القدس مركز الدائرة في الصراع العربي الإسرائيلي، وما من مدينة حظيت عبر التاريخ بالاهتمام والتأريخ كما حظيت القدس لمكانتها المقدسة عند أصحاب الأديان الثلاثة الكبرى : الإسلام والمسيحية واليهودية، وقد ركز المؤلف في صدر كتابه على رصد مراحل التطور التاريخي للمدينة المقدسة، وقد وثق المؤلف تأريخه الشامل المحيط بالتفاصيل بالكثير من المراجع التي جعلت من القدس مدارا لرؤيتها، وكان المؤلف حريصا في كل صفحات تأريخه على الكشف عن الجوهر الإسلامي الذي يعد الهوية الحقيقية لهذه المدينة التي شرفها الرسول الكريم بالإسراء إليها والعروج منها إلى السماء . فهي عند المسلمين أولى القبلتين وثالث الحرمين، وقد تتبع المؤلف معنى كلمة (القدس) في المعاجم العربية وذكر أنها تعني الطهر والبركة، واسمها القديم وهو إيليا أو أورشليم، ومعناه موضع السلام .

وقد تناول المؤلف تاريخ هذه المدينة قبل الميلاد وما تعاقب عليها من محن وغزاة، ولكنها لم تعرف التسامح والازدهار إلا في العهد الإسلامي، وأورد الدكتور حسين مجيب المصري العهد الذي قطعه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لسكان هذه المدينة، وفيه أنه أعطاهم الأمان لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم، سقيمهم وبريئهم وسائر ملتهم، وأنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم.

ولقد بويع معاوية بن أبي سفيان في بيت المقدس وهو الذي أمر بتشييد قبة الصخرة ... وحين حرر صلاح الدين الأيوبي بيت المقدس حكمها بالعدل وأحسن إلى أهلها وكان مثالا للتسامح، وأنشأ فيها المدارس ومنها المدرسة الصلاحية التي كان يدرس فيها المذهب الشافعي، والمدرسة الأفضلية ووقفها على فقهاء المذهب المالكي والمدرسة الميمونية، كما أنشئت المدارس النحوية.

د . حسين مجيب المصري

واستمر المماليك في تعمير المدينة بعد العصر الأيوبي، يقول الدكتور حسين مجيب المصري :« أما في عصر المماليك فكان للقدس منزلتها كمركز من مراكز الحضارة الإسلامية فكانت مثابة للعلماء وقد أولى سلاطين المماليك عناية ملحوظة للقدس من حيث كونها مكانا له عظيم القدسية لثلاث ديانات هي : الإسلام والمسيحية واليهودية، وكان غير المسلمين فيها لهم كل حقوق المسلمين في الدولة. ويتأكد ذلك في المراسيم التي كان يبعث بها سلاطين المماليك إلى نواب مدينة القدس، وقد تضمنت الحض على منح الرهبان كل الحرية في أداء طقوسهم الدينية في كنائسهم، وعدم التعرض لهم بما يسيء إلى مشاعرهم الدينية .

وقد استمر الاهتمام بحقوق غير المسلمين في عهد الدولة العثمانية إلى أن جاء إليها القائد إبراهيم باشا ابن محمد علي في عام ١٨٣١ م، وبقي بها عشر سنوات حاول فيها أن يطور الإصلاحات التي قام بها من سبقوه رغم المصاعب التي واجهها.

وظلت هذه المدينة تحظى بمكانة خاصة في التاريخ حتى فاجأتها لحظة التحول الكبرى بعد أن احتلها اللنبي القائد الإنجليزي في عام ١٩١٧م، بعد أن فرضت الحماية خلال الحرب العالمية الأولى على كثير من الأقاليم التابعة للدولة العثمانية . وجاء اللنبي ليمهد لتطبيق وعد بلفور الذي كان قد صدر في ٢ نوفمبر ١٩١٧م بينما جاء الاحتلال الإنجليزي لأرض فلسطين، وللقدس على وجه الخصوص في ٩ ديسمبر ١٩١٧م ومنذ ذلك الوقت بدأ المشروع الصهيوني يخطط للاستيلاء على فلسطين ويضع يده على المدينة المقدسة أملا في هدم المقدسات الإسلامية وإعادة بناء الهيكل المزعوم.

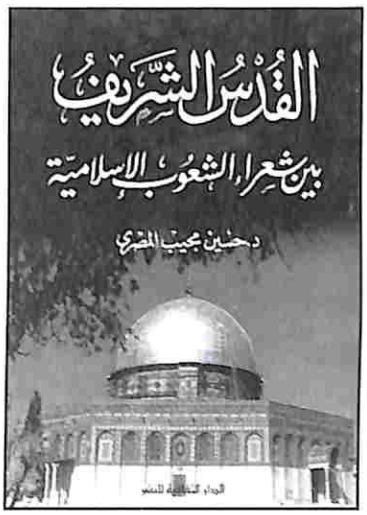

ومن أهم صفحات هذا الجزء التاريخي في الكتاب، ما أورده المؤلف الدكتور حسين مجيب المصري من وصف مدينة القدس للكاتب الفارسي ناصر خسرو الذي وفد في عام ٤٣٧ هـ وتوفي في عام ٤٨٣هـ، وهو من مشاهير الشعراء في تاريخ الأدب الفارسي، زار الهند وأفغانستان وتركستان والحجاز ومصر وسوريا والقدس. وقد رصد المؤلف معاناة القدس في العصر الحديث بسبب المشروع الصهيوني ومحاولات إزالة المسجد الأقصى بإحراقه مرة، وبمحاولة تدميره مرات .

أما جوهر هذه الدراسة فهو رؤية الشعراء في كل البلاد الإسلامية لقداسة هذه المدينة وعظمتها وأهميتها في تاريخ العروبة والإسلام، يقول الشاعر رشيد بن بدر النابلس يشيد بانتصار صلاح الدين الأيوبي وتحريره لبيت المقدس .

هذا الذي كانت الآمال تنتظر
فليوف لله أقوام بما نذروا
بمثل ذا الفتح لا والله ما حكيت
في سالف الدهر أخبار ولا سير
الآن قرت جنوب في مضاجعها
ونام من لم يزل حلف له السهر
يا بهجة القدس إذ أضحى به علم
الإسلام من بعد طيٍّ وهو منتشر
يا نور مسجده الأقصى وقد رفعت
بعد الصليب له الآيات والسور
الله أكبر صوت تقشعر له
شم الذرى وتكاد الأرض تنفطر
هذا الذي سلب الأفرنج دولتهم
وملكهم . يا ملوك الأرض فاعتبروا

وإذا كان هذا يمثل فرح الشعراء بالنصر القديم، فإن النكبة التي ألمت بأرض فلسطين وأدمت المدينة المقدسة بجراحها الأليمة قد أثارت وجدان الشعراء الذين واكبوا الأحداث الكبرى منذ عام ١٩٤٨م، هذا العام الذي وسم في الوثائق السياسية والأدبية والتاريخية بعام النكبة يقول الشاعر الفلسطيني هارون هاشم رشيد:

المسجد الأقصى أبيح يقولها
شعب يقاتل لا يمل ويهجم
هو ثالث الحرمين في باحاته
حشد البغاة جموعهم وتقدموا
داسوا طهارته وشجوا كبره
وتجرؤوا وتجبروا وتحكموا
غلوا الأذان به وشدوا قيده
وعلوا على محرابه وتسنموا

ثم يتحدث عن النضال من أجل تحرير فلسطين:

وهو الأسير يظل رجع ندائه
يدعو لا غيث يجيء ويقدم
هل تسمعون تقول فيه حجارة
هل تسمعون تقولها تستفهم
هل تسمعون وقد رأيتم أهلنا
في القدس عزلا بالحجارة أقدموا
أرأيتمُا من عمق أعماق الأسى
كيف النساء وثبن كيف اليتّم
كيف الصدور العاريات تقدمت
للموت غاضبة تموج وترزم
أرأيتم أطفالنا كيف انتضووا
عزم الرجال وغامروا وتقحموا

ويقول الشاعر محمد التهامي:

أراه بعيني ملء البصر
وألمس لمس البنان الحجر
فما عاد أقصى ولكن هنا
وعذّبه الشوق حتى حفر
وعانقني وهو طيف الجهاد
فذاب الجهاد وذاب البشر
جرى في دمي نبضه المستغيث
فعذبني منه وخز الإبر

تحلق بي يحتمي من أساه
وغطى على الدمع حتى انفجر
بكينا سويا وفيض الدموع
يضاعف من جمر ما استعر
فيالك ليل تخطى الضلوع
وداس على القلب حتى انفطر
وصور لي عالما في مداه
تضج الحكايا وتبكي الصور
وحدثني عن جدار عتيد
ومئذنة عاش فيها القمر
وعن قبة تغلب الراسيات
إذا الأرض دارت لم تدر

ولم يكتف المؤلف بما قاله الشعراء العرب بل قدم لنا الدكتور حسين مجيب المصري نماذج من الشعر الفارسي والشعر التركي والأردي فهذا شاعر تركي يسمى محسن إلياس صوباشي » يقول على لسان طفل فلسطيني يتيم:

روضة القدس بها وردا قطفت
وبأرضي إنني هنا قد غرست
وإلى قابيل لكني أعود
ناب مصاص الدما إني خلعت
بحسامي رأسه حطمته
ودماء الشهداء كم جمعت
قطرة من بعد أخرى جمعت
وعلى هام أعادي نثرت
بالدماء رايتي قد خضبتها
رايتي الحمراء ها إني رفعت

ومن الشعر الأردي تقول نبيلة إسحاق:

هي القدس قال اليهود لنا
وهم أطفؤوا مالها من سنا
دماء الزهور تذيب القلوب
وتبكي السماء لهول الخطوب
لنا لا لهم من قديم الزمان
وفي القدس من يفتدون الوطن
لهم حجر في أكف كَمَنْ
ويحمل نعش وأم تنحوح
وأخت تقول شهيد يروح
شهيد له الوجه أم رأت
بكت ولها كبد مزقت

إن هذا الكتاب يعد إضافة هامة للمكتبة العربية في هذا الموضوع الذي يحتل شغاف القلوب، ويتصدر سيل الأنباء .. القدس الشريف بين شعراء الشعوب الإسلامية للأستاذ الدكتور حسين مجيب المصري وهو الكتاب الخامس والستين للمؤلف، وبهذا يعد تتويجا لعطاء متواصل لواحد من أبرز علماء الدراسات الشرقية في مصر والعالم الإسلامي . ■

رسول الإنسانية

شعر : د . يوسف نوفل
مصر

في حياتي اليوم والدنيا شجون وألمْ
وعبارات الأسى تنهل من كف الندمْ
وشعوب الأرض تشكو من شرارات العدمْ
تصبغ الأفق بألوان فناء وسقمْ
أذكر الهادي حبيب الله محمود الشيمْ
في هداه كل فرد قدس السِّلْم سَلِمْ
في هداه كل حر عاش ما راعى الذممْ
قد دعا الداعي إلى الله ، دعا كل الأممْ
ورسول الله يخطو فوق هامات الشممْ
ثابت الخطوة يفني عزمه كل صنمْ
ورؤوس الشر تهوي .. أيُّ صرح ينهدمْ!
أيُّ شرٍ ماج والدنيا فساد وظلمْ
كم ضعيفٍ بات مظلوما على الرغم وكمْ!
جئت سمحا طاهرا تبرئ من كل سقمْ
وأبيّا تنزع الأغلال من كل قدمْ
لتعيش البسمة الحلوة تعلو كل فمْ